مجلـــــة العلـــــوم التربـــــوية والدراســـــات الإنســـــانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)

Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

المنهج الظاهراتي في دراسة الأديان البيروني أُنموذجًا(*)

أ.د/ عرفات أحمد مقبل حسان
أستاذ علم الأديان بجامعتي تعز والملك خالد
arazar5566@gmail.com

د/ خالد حسن محمد البعداني
الأستاذ المشارك بجامعة الملك خالد
ybkybk2020@gmail.com

*) تاريخ تسليم البحث 3/11/2022 تاريخ قبوله للنشر 2/1/2023
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

المنهج الظاهراتي في دراسة الأديان البيروني أُنموذجًا

أ.د/ عرفات أحمد مقبل حسان
أستاذ علم الأديان بجامعتي تعز والملك خالد

د/ خالد حسن محمد البعداني
الأستاذ المشارك بجامعة الملك خالد

الملخص

يُعنى هذا البحث بدراسة إسهامات أبي الريحان البيروني في التأسيس لـ"علم مقارنة الأديان"، وبيان مناهج دراسته، ساعيًا إلى إبراز الأثر البارز لهذا العالم المسلم في وضع منهج علمي قائم على أسس علمية؛ تتمثَّل في الاعتماد على المعايَنة والمشاهَدة المباشرة، وهو ما يُعرف – اليوم– بالظاهراتيَّة؛ وذلك لبيان جانب من فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية التي تنسب هذا العلم إليها.

الكلمات المفتاحية: الظاهراتي، أديان، البيروني.

The Phenomenological Approach in Theology: Al Biruni as a Model

Prof. Arafat Ahmed Moqbel Hassan
Professor of Theology at Taiz University and King Khalid University

Dr. Khaled Hasan Mohammed Al-Baadani
Associate Professor at King Khalid University

Abstract:

This study aims at with investigating the contributions of Abu al-Rayhan al-Biruni in establishing comparative Theology. The study aims at explaining the approaches of theology. It aims to highlight the prominent impact of this Muslim scholar in developing a scientific method based on scientific foundations represented by reliance on direct observation and watching, which is known today as phenomenology in order to show the aspects of Islamic civilization over Western civilization to which this science is falsely attributed.

Keywords: Phenomenological Approach, Al Biruni, Theology.

المقدمة:

من حقائق التاريخ – التي لا يمكن لأحد إنكارها أو التنكُّر لها– أن "علم مقارنة الأديان" ظهر كنشاطٍ علميّ له أصوله وقواعده على أيدي علماء المسلمين الذين كان للقرآن الكريم فضلُ تنبيههم إليها، وإذا كان الإسلام حضارة لها مميّزاتها وخصائصها وما ينفرد بها، فمن الطبيعي أن يكون للمسلمين في نشاطاتهم العلمية، وتوجُّهاتهم الفكرية منطلقات خاصة بهم، وأهداف تختلف عن تلك التي تتبنَّاها الأمم الأخرى ذات الحضارات المختلفة؛ ومن هنا كانت طبيعة "علم الدين المقارن" عند المسلمين مختلفة عن مثيلها في الفكر الغربي.

وفي هذا السِّياق يأتي هذا البحث المعنون بـ"المنهج الظاهراتي في دراسة الأديان – البيروني أنموذجًا".

ليسلِّط الضوء – من جهة – على المنهج الظاهراتي، وليُبرز– من جهة أخرى– تطبيقات هذا المنهج عند البيروني في دراسة الأديان، الذي يبدو أنه أكثر شهرةً في الغرب منه في العالم الإسلامي.

مدخل عام:

المنهج ليس إلا خطوات منظَّمة يتَّبعها الباحث ليضمن سلامة الطريق وسداد الفهم ويتجنَّب العثرات والوقوع في الأخطاء، والمنهج يختلف باختلاف الموضوع، وإذا كان المنهج عبارة عن الخطوات المنظَّمة، فإن علمية هذه الخطوات تكمن في تناسُبها مع موضوع البحث واتساقها مع طبيعته وقدرته على مساعدة الباحث في إصابة الحق.

وقد اتَّسم هذا النشاط في حقل (علم الأديان) – في بداية الأمر– بمحاولات العلماء جمع المادة العلمية التي يمكن الحصول عليها من الأديان المختلفة التي يجدون طريقةً للوصول إليها والقيام بدراستها، ولم يستمر هذا التوجُّه طويلًا؛ إذ سرعان ما تلقَّف الأمر المنهج التاريخي الذي يمكن أن يُعَدَّ أبرز منهج استُخدم في هذا المجال، قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالمنظور التطوري الذي اكتسح جميع فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، بعد أن أُخرِجَ من مجاله الطبيعي الذي ظهر فيه، وقد أدَّى هذا بالعلماء إلى النظر إلى الأديان على أنها حلقة في التطوُّر الطبيعي للحياة الإنسانية؛ فانصرفت– تبعًا لذلك– اهتمامات العلماء والباحثين في "علم الأديان" إلى قضية أساسية في بحوثهم وهي "قضية نشأة الأديان".

لقد كانت وراء نشأة "علم الأديان" في الفكر الإسلامي بواعث ودوافع كثيرة، تآزرت وتساندت في توجيهِ علماء الإسلام وحثِّهم على الإقبال على هذا الحقل العلمي الجديد، وتنميته وتطويره موضوعًا ومنهجًا.

دوافع اهتمام علماء المسلمين بدراسة الأديان:

١– وجد المسلمون– الأوائل منهم والمتأخرون–تحفيزات في القرآن الكريم تقوم على عرض العقائد الدينية المختلفة والرد عليها.

٢- تحمُّل المسلمين لأمانة التبليغ لرسالة الإسلام التي تنفرد بين الرسالات بكونها رسالة عالمية.

٣- لقد عاش المسلمون في دولة الإسلام وعاش معهم مواطنون ذِمِّيُّون وغير ذِمِّيِّين؛ مما جعل المسلمين يبحثون تلك العقائد ويُنقِّبون عن خفاياها.

٤- لقد ماجت الدولة الإسلامية- في عصورها المتعاقبة- بحركة عقلية نشطت في مجالات عدَّة، أهمُّها: دراسة الأديان؛ فكان لا بدَّ أن تكون لهذه الحركة العقلية ثمراتٌ عملية واقعية تمثَّلت في الكمِّ الهائل من المؤلَّفات والمصنَّفات الدينية الأخرى التي تلتقي- أو تنتفي- مع العقيدة الإسلامية[١].

مناهج دراسة الأديان عند علماء المسلمين:

يقول دين محمد ميرا: "لقد ظهرت الدراسة التحليلية النقدية للأديان كنشاطٍ علميٍّ له قواعده وأصوله ومناهجه ومفاهيمه في العالم الإسلامي على أيدي علماء المسلمين الذين كان للقرآن الكريم فضلُ تنبيههم إليها، وجذبِهم نحوها، وإن كانت الظروف الاجتماعية، مثل الاحتكاك بأهل الأديان الأخرى والتعايش معهم، وكذلك واجبات الدعوة والتصدِّي لشبهات الآخرين، والدفاع عن حظيرة التوحيد ومبادئ الإسلام، كل تلك- مجتمعةً أو منفردةً- كانت الأسباب المباشرة لبروز هذا النشاط لديهم"[٢].

ومن أبرز هذه المناهج:

١) المنهج الوصفي الظاهراتي:

المقصود من الوصف هنا ليس المنهج الوصفي الذي تستعمله الدراسات الحديثة- وخاصة الميدانية منها-؛ لأن هذا لم يكن معروفًا ولا ممارَسًا بكلِّ إجراءاته المنهجية قديمًا، وإنما المقصود من الوصف هو توصيف الديانة بعقائدها وشرائعها وطقوسها وعباداتها كما هي موجودة عند أصحابها، سواء من خلال مصادرها الأساسية أو ممارسة المجتمع المؤمن لها في أرض الواقع، من غير زيادةٍ ولا نقصان، ولا نقدٍ ولا تقويم.

والفائدة من الدراسة التوصيفية أو الوصفية للدِّين هي تشريح الديانة وتحليلها من كل الجوانب؛ قَصْدَ فهمِها واستيعابِ فلسفتها أولًا؛ ومِنْ ثَمَّ تسهيل عمليات المقارنة والمقاربة والنقد والرد، سواء من طرفِ نفس الدارس، أو من طرفِ غيره[٣]. ويطلق عليه "المنهج الظاهراتي" أو "المنهج الفينومينولوجي".

---

١) في علم الدين المقارن، محمد ميرا، ميراث النبوة للنشر والتوزيع، ص٣٩-٥٥، وعلم الملل ومناهج العلماء فيه، أحمد بن عبد الله جود، دار الفضيلة، الرياض، ٢٠٠٥م، ص١٨٦-١٩١.

(٢) في علم الدين المقارن، مقالات في المنهج، ميرا دين محمد، ص٩٩.

(٣) الموضوعية في دراسة الأديان، يوسف العائب، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المجلد ٣٥، العدد ٢، ص٢٠.

والمقصود بالمنهج الظاهراتي: أن يضع الباحث معاييره أو معايير دينه أو ثقافته بعيدًا، وأن ينخرط من داخل الظاهرة الدينية، ويكتشف منطقها من الداخل، فمطلبُ فكِّ الارتباط بالأُطُر المرجعية والمنهجية للباحث تُعِينه على رفع المشوِّشات والعقبات التي تمنعه من فهم الظاهرة الدينية، واكتشاف منطقها الداخلي، فالانخراط داخل الظاهرة الدينية- بحسب الفاروقي- يتيح للباحث- من جهةٍ- تجنُّب التحكُّمات والقيم المتسرِّعة، كما يتيح له- من جهةٍ ثانية- أن يعيش الظاهرة ويفهمها كما هي في حقيقتها؛ ليتسنَّى له الانتقال- بعد ذلك- من عملية الفهم إلى التقويم الموضوعي(١).

ولذلك لم يقم البيروني بدراسةٍ نظرية لأديان الهند، بل قام بدراسة تطبيقية ميدانية؛ يدلُّ على ذلك قوله في مقدمة الكتاب:

"إنَّما صدق قول القائل "ليس الخبرُ كالعيان"؛ لأنَّ العيان هو إدراكُ عينِ الناظر عينَ المنظور إليه في زمانِ وجودهِ وفي مكانِ حصولهِ"، ولم يكتفِ البيروني بالمشاهَدة فقط، بل كان- في بعض الأحيان- يسأل ويستفسر العلماء والمنجِّمين ورجال الدين، وفي ذلك يقول: "كنتُ أقفُ من مُنجِّمِيهم مقامَ التلميذ من الأستاذ؛ لِعُجْمَتِي فيما بينهم وقصوري عمَّا هم فيه من مواضعاتهم"(٢).

وقد ابتعد البيروني عن النقد والجدل، واختفت مرجعيَّته الإسلامية في ثنايا الكتاب؛ فكان مجرَّدَ حاكٍ وناقلٍ لما شاهده في بلاد الهند، وكان ذلك مما أكَّده البيروني في مقدمة كتابه، حيث قال: "ففعلتُهُ غيرَ باهتٍ على الخصم ولا متحرِّجٍ عن حكاية كلامه، وإنْ بَايَنَ الحقَّ واستفظعَ سماعَهُ عند أهله؛ فهو اعتقادُهُ وهو أبصَرُ به. وليس الكتابُ كتابَ حِجَاجٍ وجدلٍ حتَّى أشتغلَ فيه بإيرادِ حُجَجِ الخصوم ومُناقَضة الزائغ منهم عن الحقِّ، وإنَّما هو كتاب حكاية، فأُورِدُ كلام أهل الهند على وجهه". ويقول في موضع آخر: "وأنا- في أكثر ما سأُورد من جهتهم- حاكٍ غير منتقدٍ"(٣).

يُعَدُّ البيروني من أوائل العلماء الذين اهتمُّوا بدراسة الأديان وفق المنهج الظاهراتي- الفينومينولوجي، في كتابة الفَذِّ "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولةٍ في العقل أو مرذولة".

وقد أَوْلَى البيروني هذا المنهج أهميَّة كبيرة، وتُعَدُّ دراسته لأديان الهند دراسة ظواهرية تجعل الظواهر تتحدَّث عن نفسها دون أن يُقحمها في إطارٍ فكريٍّ مقرَّرٍ سلفًا.

وأما في الغرب، فقد كان الفيلسوف الألماني "إدموند هوسرل" أول مَن أَدخلَها وأَسَّسَ لها في الفلسفة الغربية في بدايات القرن العشرين.

---

(١) النموذج المعرفي لنقد الأديان عند الفاروقي، بلال التليدي ص٤، إسلامية المعرفة، السنة التاسعة عشرة، العدد ٧٤، سنة ٢٠١٣، ص٤.

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٥/١٦.

لقد عرَّف "هوسرل" الظواهرية بأنها: "وصفُ الوعي الإنساني، أي: وصف العالم الْمُعَاش الماديّ الذي نمرُّ به دون الرجوع إلى كل الافتراضات السابقة؛ فهي- إذن- تساعد الشيء على الظهور بخواصِّه، وتمكِّنه من الإفصاح عن نفسه بُغيةَ إدراكِهِ وفهمِهِ؛ بشرط التحرُّر من كلِّ ما هو مسبَّق من افتراضات أو مفاهيم، أو نظريات مفسِّرة"(١).

وفي رأي "فان ليوي" فإن حقيقة الظاهرة تعبِّر عنها الظاهرة نفسها التي تبدو لنا، أي أن ظواهر الأديان هي المدخل للتعرُّف على حقيقة الأديان، فالظاهراتية في الدين ليست مجرد تصنيف تاريخي للظواهر الدينية، وهذا يمكن أن يقوم به الاتجاه التاريخي، إنما هو تصنيف تفسيريّ نفسيّ، وملاحظة دقيقة للحقيقة الدينية.

معنى "الدِّين الظاهراتيّ":

إن الدِّين "الظاهراتيّ" يمكن أن يُقصد به أمران:

الأمر الأول: هو القيام بتصنيف الظواهر الدينية.

الأمر الثاني: هو دراسة الظواهر الدينية المختلفة للتوصُّل إلى فهم دقيق للحقائق التي تُمثِّلُها هذه الظواهر بوصفها المدخل الوحيد أو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف.

ففي الحالة الأولى: "الظاهراتيَّة" مجرد منهج يساعد أيَّ باحثٍ في مجال الأديان، ولا يَرْقَى إلى مستوى الحديث عنه كعلمٍ مستقلٍّ.

أما في الحالة الثانية: فهو اتجاه في دراسة الأديان ونظرة محدَّدة إليها يقوم على أسس ومنطلقات معيَّنة، أهمُّها:

أولًا: الإيمان بأن الظواهر الدينية هي المدخل العلمي الصحيح والوحيد لدراسة الأديان.

ثانيًا: ينبغي أن يكون الباحث متجرِّدًا من كلِّ مسلَّمات فلسفية أو تاريخية أو غيرها تجرُّدًا كاملًا.

ثالثًا: الحرص على عدم اختزال الظواهر الدينية في صور معيَّنة أو في قوالب محدَّدة وفق تصوُّرات قَبْلِيَّة.

رابعًا: عدم الانخداع بالتسميات الظاهرة لتلك الظواهر والبحث عن معناها الحقيقي.

وهذه الأسس والمنطلقات التي يقوم عليها (الدِّين الظاهراتيّ) تضمن له الموضوعيَّة الكاملة.

خصائص الاتجاه الظاهراتي:

أولًا: "الإبوخيَّة" لفظة يونانيَّة، أول من استخدمها "إدموند هوسرل" وتعني: "تعليق الحكم"، وهي -كما بيَّن "الفاروقي"-: "تعطيل جميع ما سبق من مفاهيم وأحكام وميول في تفسير المعطيات في ديانة أو ثقافة أخرى وفي استخلاص معانيها"(٢).

(١) المذاهب النقدية مدخل فلسفي، محمد شبل الكومي، تقديم: محمد عناني، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ٢٠٠٠م، ص١١٨.

(٢) الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، لحميل الحاج، مكتبة لبنان ناشرون،٢٠٠٠م، ص٥٢٦.

أي: تحييد كلِّ ما لدى الباحث من أصناف المقولات الدينية، والأخلاقية والثقافية أثناء النقد؛ ولذلك يجب على الباحث ألَّا يُنزل على المواد الدينية أيَّة مقولة لا تصدر عنها، وأن يتجنَّب الحكم عليها قبلَ سَبْرِها، وأن يجتهد في فهمها، لا في الحكم لها أو عليها(١).

ثانيًا: الانفتاح العاطفي: أي: تقبُّل ما تُقرِّره مواد موضوع البحث؛ لأن المعطيات الدينية "مواد حيَّة" لا تُفصح عن نفسها، ولا تكشف عن مكنونها إلا لمستمعٍ متعاطف.

ثالثًا: الخبرة، أو الأُلفة السابقة مع المواد الدينية؛ لأن مثل هذه الخبرة تسهِّل الانفتاح العاطفي، وتكاد تكون شرطًا مسبَّقًا له؛ ولهذا فمن يلبِّي مطالب الدراسة المقارنة، ويعطِّل أفكاره الموروثة أو المكتسَبة؛ فسيُعينه" الانفتاح العاطفي" و"الخبرة" على فهم موضوع بحثه ومعانيه)..(٢).

وقد تمثَّل البيروني هذه الإجراءات في دراسة أديان الهند، من خلال سعيه الدَّؤوب لفهم هذه الأديان كما يفهمها أتباعها، وكما تعرضها كتبُهم المقدَّسة، فكان -بذلك- في موقف العارض، والباحث وراء فهم الآخر، مستبعِدًا كلَّ الأحكام المسبَّقة التي قد تقف عائقًا أمام سير البحث العلمي؛ للوصول إلى النتيجة المرجوَّة.

بين الاتجاه الظاهراتي والاتجاهات الأخرى:

في الوقت الذي ينظر فيه "علم النفس الديني" إلى الدِّين على أنه "ظاهرة نفسية"، وفي الوقت الذي نرى "علم الاجتماع الديني" يتناول الدِّين على أنه "ظاهرة اجتماعية"، وفي الوقت الذي نجد فيه الاتجاه التاريخي ينظر إلى الدِّين على أنه "ظاهرة تاريخية بحتة"، نجد الاتجاه الظاهراتي يصرُّ على عدم تطبيق أيِّ مبدأ خارجيّ، بل يحاول أن يطبِّق مبدأ الفهم الشامل للدِّين من خلال ظواهره الخاصة، مُؤْثِرًا التَّعدديَّة المنهجيَّة. وتختلف فلسفة الدِّين أو الاتجاه الفلسفي في دراسة الأديان -في نظرتها ومنهجها- عن كل الاتجاهات الأخرى العاملة في حقل "علم الأديان"؛ الأمر الذي جعل بعض الناس لا يرى إدخال فلسفة الأديان في المجالات الأساسية لعلم الأديان، بل يستبعدها ويكتفي بالمجالات الأربعة الأخرى، وهي "علم النفس الديني"، و"علم الاجتماع الديني"، و"علم الدين الظاهراتي" و"تاريخ الأديان"، كمجالات أساسية مشكِّلة لمقارنة الأديان.

وينبغي أن ندرك أن كلَّ نشاطٍ علميٍّ- على اختلاف أنواعه في مجال مقارنة الأديان- يُعَدُّ نشاطًا مساعدًا لتاريخ الأديان؛ إذا فُهِمَ تاريخ الأديان بمعناه الواسع، وهو المعنى الذي يجعله مرادفًا لعلم الأديان أو مقارنة الأديان، أما إذا فُهِمَ بمعناه الخاص فهو- في هذه الحالة- اتجاهٌ معيَّنٌ مثل الاتجاهات الأخرى.

(٢) أطلس الحضارة الاسلامية، إسماعيل راجي الفاروقي ولمياء الفاروقي،ط ١،الرياض مكتبة العبيكان، ط١/١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩.

ولم يكن هناك خلاف كبير يُذكر بين العلماء في تمييُز "علم الدِّين الظاهراتي" عن "علم الاجتماع الديني" أو "علم النفس الديني" أو "فلسفة الدِّين"، إنما الخلافُ الحادُّ الذي وقع بينهم كان بين "الدِّين الظاهراتي" و"تاريخ الأديان".

٢) المنهج المقارن:

يُعتبر "المنهج المقارن" وسيلةً من وسائل "المجادلة بالحُسْنَى"- في المفهوم القرآني-، و"المقارنة"-كمنهج علمي في مجال الأديان، وعلى المستوى الأكاديمي- حديثة الظهور، والقرآن الكريم يوجِّه إلى هذا المنهج نظرًا ويُطبِّقه عملًا. ويُعَدُّ المنهج المقارن في دراسة الأديان من أبرز مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان، وهدف علماء المسلمين في مقارنة الأديان هو إبراز فضل الإسلام، ولعلَّ كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» للعامريّ خير أُنموذج لهذا، فقد حدَّد العامريّ -في هذا الكتاب- الأديان التي سيُقارن بينها. وقد استفاد علماء المسلمين من تلك المقارنات بين الأديان حيث أَضْفَتْ على دراستهم للأديان عمقًا وثراءً، وأتاحت لهم رؤيةً نافذة، ودرايةً كاملة بعقائد وأفكار أهل الملل المختلفة(١).

٣) المنهج النقدي:

إن الاتجاه القرآني العام -في موقفه من الأديان الأخرى- اتجاهٌ نقديٌّ علميٌّ، وهذا الاتجاه النقدي لا يعني -في منطق القرآن الكريم- الحَطَّ من شأن الأديان الأخرى، ولكنَّه يبيِّن سفه مقالاتهم وضلال توجُّهاتهم وانهيار أسس بناء عقائدهم في إطار المنطق العملي والحُجَج الموضوعية؛ وهذا ما يقتضيه واجب الدعوة(٢).

ويمكن أن نمثِّل لهذا بمنهج الإمام ابن حزم في كتابه «الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» فقد خصَّص ابن حزم مساحةً كبيرة من كتابه هذا لدراسة الأديان، وتناولها بتحليل نقدي؛ حيث نقدها- سندًا ومتنًا- مستنِدًا على قواعد وأصول منهجية.

٤) المنهج التاريخي:

المقصود به: تتبُّع نشأة وتطوُّر الأفكار والمذاهب الدينية من خلال المراحل التاريخية المختلفة، وهذا يعني أن المنهج التاريخي يحصر اهتمامه في منطقة المعلومات التاريخية فقط، وعلى الرغم من كونِ المنهج التاريخي يقوم على الوصف والسرد التاريخي إلا أن علماء الأديان المسلمين وضعوا- نصب أعينهم- الجمع بين الوصف التاريخي مع المنهج النقدي، ومن أقرب الأمثلة على هذا المنهج دراسة الإمام البيروني لأديان الهند في كتابه «تحقيق ما للهند...»(٣).

(١) في علم الدين المقارن، محمد ميرا، ص٣٩- ٥٥، وعلم الملل ومناهج العلماء فيه، أحمد جود، ص١٨٦-١٩١.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٦.

(٣) علم الملل ومناهج العلماء فيه، أحمد جود، ص١٨٦/١٩١.

٥) **منهج الحوار والرَّدِّ والمُحَاجَّة:**

تبنَّى القرآن منهج الحوار كمنهج من مناهج الدعوة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، إن دعوة القرآن الكريم إلى الحوار ليس يُراد منها تبادل المعرفة أو التعرُّف على ما عند الآخرين كما هو أحد أهداف الحوار المعلنة لدى علماء الغرب، وإنما يُراد منها التوصُّل إلى الحق أو مساعدة الآخرين على إدراكه بطريقة علمية هادفة(١).

كما دعا القرآن الكريم إلى المجادلة بالتي هي أحسن مع الآخَرِ الديني، قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦]، والمجادلة بالأحسن -كمنهج قرآنيّ- تعني مناقشة موضوعية للقضايا المثارة بُغية التوصُّل إلى الحق.

٦) **المنهج الشامل في دراسة الأديان:**

هو المنهج الذي يشمل جميع المناهج السابقة، حيث يهتمُّ بعرض ما يتناوله بالدراسة عرضًا أمينًا، وهذا المنهج هو الأمثل في تناول دراسة الأديان؛ إذ وصفُ الأديان وحده لا يُغني، وخيرُ أنموذج لهذا المنهج كتابُ «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

اتجاهات علماء المسلمين في دراسة الأديان:

يمكن تقسيم الدراسات الإسلامية للأديان إلى مجموعة اتجاهات فكرية:

١- اتجاه وصفيّ يقدِّم الدِّين والمذهب كما يراه أصحابه، ومن نماذج هذا الاتجاه كتاب «الْمِلَل والنِّحَل» للشهرستاني.

٢- اتجاه نقدي يتعقَّب جوانب الضعف في المِلَّة والدِّين والنِّحْلَة، ومن نماذج هذا الاتجاه كتاب «الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» لابن حزم.

٣- اتجاه دفاعي يواجه حملات التنصير التي تتربَّص بالمجتمع الإسلامي، ومن نماذج هذا الاتجاه كتاب «مقامع هامات الصُّلبان وروائع روضات الإيمان» لأبي جعفر أحمد بن عبد الصمد.

٤- اتجاه اعترافي يقوم على بيان خطأ عقيدة سابقة، وضلال دين كان عليه أصحابه، إلى أن هداه الله تعالى للإسلام وعرف نور الحق، ومن نماذج هذا الاتجاه كتاب «تحفة الأريب في الرَّدِّ على أهل الصليب» للقسّ الأسباني أنسلم تور ميدا.

(١) في علم الدين المقارن، محمد ميرا، ص٣٩/٥٥، وعلم الملل ومناهج العلماء، ص١٨٦/١٩١.

المحور الثاني: البيروني والظاهراتية:

تحديد مفهوم "الاتجاه الظاهراتي" ليس بالأمر السهل، وبخاصة إذا استقرأنا ما يقوله علماء هذا الاتجاه، وقد اختلف علماء الأديان في الغرب حول ماهيَّة هذا الاتجاه، واجتهدوا كثيرًا في تحديده وتعريفه، كما اختلفوا فيما بينهم في فهم طبيعة عمله ورسم مجاله، وقال (دوجلاس ألان) كاتب مقالة (الدين الظاهراتي): إنه على الرغم من بروز الدين الظاهراتي كحقلٍ علميٍّ كبير وكاتجاهٍ ذي تأثيرٍ خطير في مجال دراسة الدِّين في القرن العشرين، فإن كتابة ورقة حوله تواجهها صعوبات كبيرة.

أصول المنهج الظاهراتي: يقوم المنهج الظاهراتي على خمس قواعد:

القاعدة الأولى: رصد الظواهر الدينية وإعطاؤها أسماء ليسهل تصنيفها بدقة، وهذه العملية مهمة جدًّا؛ لأن هذه التسمية والتصنيف التابع لها هما اللذان يمكِّنان الباحث الظاهراتي من التعرُّف على الظواهر الحقيقية للدِّين الجديرة بتوصيله إلى هدفه.

القاعدة الثانية: محاولة الباحث معايشة الظاهرة وتجربتها بصورة شخصية ومنظَّمة، وكما يقول (ليوي) إن كلَّ ما يَظهر لنا لا يقدِّم لنا نفسه بصورة مباشرة وفورية، إنما كرموزٍ لمعانٍ ينبغي أن نقوم نحن بإبرازها، وهذا مستحيل ما لم نقم نحن بالمشاركة في تجربة هذا الذي يَظهر لنا بطريقة اختيارية ومنهجية لا بطريقة قهرية ولا شعورية.

القاعدة الثالثة: أن يجلس الظاهراتي في هدوء متجرِّدًا من كل أفكار مسبَّقة.

القاعدة الرابعة: ويقوم بملاحظة تلك الظواهر ودراستها ليستطيع رؤيتها وإدراك حقائقها بوضوح.

القاعدة الخامسة: عندما يواجه الظاهراتي هذه الحقيقة –أو الحقائق–التي تجلَّت له، وأحاط هو بها، ويقوم بالتحقُّق من فهمه لها والتأكد منه(١).

وقد سبق المسلمون في هذا المضمار الغربيين الذين لم يعتنوا بهذا العلم إلا في العصور المتأخرة بعد ما يُسمَّى بعصر النهضة في القرنين ١٥، ١٦م.

وكان مِن أشهر مَن مارس الدراسة الوصفية الظاهراتية للأديان: البيروني، فتجربة البيروني مثال على الدراسات القليلة التي استطاع أصحابها تجاوز حدود التجربة الدينية الذاتية، ليصف تجارب دينية أخرى بموضوعية كبيرة(٢).

فمن خلال كتابه يمكن القول بأن بدايات المنهج الوصفي أو الفينومينولوجي ظهرت قبل ألف سنة

(١) Leeuwe، «Religion in Essence and Manifwstation» in J. Waardenburg: op cit: p 415-417.

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣ ص١٢.

مع البيروني الذي درس الهندوسية من مصادرها الأساسية، وترجم- بنفسه- بعض كتبها المقدَّسة.

ويشير الفاروقي إلى أن اللبنات الأولى لهذا المنهج موجودة عند البيروني، وقد طبَّق البيروني هذا المنهج في كتابه عن ديانات الهند، وأصبح منهجه مُتَّبَعًا مِن بعدهِ في التراث المقارن عند المسلمين. ولم تعرفه الفلسفة الغربية إلا مع إدموند هوسرل(١).

التعريف بالبيروني:

وجد المسلمون أنفسهم- بفعلِ العوامل السابقة- مدفوعين دفعًا نحو تناول الأديان بالدرس والتحليل، فمنذ القرن الثاني الهجري انفتح الفكر الإسلامي على أديان العالم، وجعلها موضوعًا مستقلًّا للدراسة والبحث، ووضع علماء الإسلام لذلك مناهج علمية سديدة، فوصفوا أديان العالم وحلَّلوها وقارنوا بينها. وعلى الرغم من ابتهاج العلماء باكتشافاتهم العلمية وتزايد معرفتهم المستمر بالأديان المختلفة، بقيت الأديان غير مفهومة، وظلَّت حقائقها غير معلومة، وتفسيرات العلماء لطبيعتها وعملها غير مُرضية؛ الأمر الذي أشعرَ بعضَ العلماء بالحاجة إلى منهج جديد يترك المتدِّين يعبِّر عن نفسه وعن عقيدته بحرِّيَّة، وهنا ظهر نفرٌ من العلماء في هولندا يبحثون في إمكان استغلال منهج كان معروفًا من قبل باسم (المنهج الظاهراتي)(٢).

-اسمه ونشأته:

هو أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الخوارزمي، ولد في بلدة بيرون سنة ٩٣٧هـ/٣٢٩م، وتوفي سنة ٤٤٣هـ-١٤٣١م بغزنة (كابول-اليوم)، فيلسوف ورياضي ومؤرخ، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وكان ذا شهرة عالية ومكانة متميزة عند ملوك عصره. له مؤلفات كثيرة ومهمة في ضروب مختلفة من العلم تُرجمت أغلبها إلى أهمِّ اللغات العالمية(٣).

يُعتبر البيروني واحدًا من أعظم العلماء المسلمين الذين عرفهم الناس في القرون الوسطى، عاش البيروني خلال العصر الذهبي للإسلام، حيث جرى البحث العلمي جنبًا إلى جنب مع منهجية وتفكير الدِّين الإسلامي. وإضافة إلى هذا النوع من التأثير، تأثَّر البيروني بالأمم الأخرى أيضًا، مثل الإغريق الذين تعلَّم منهم دراسة الفلسفة، وكان البيروني متحدِّثًا باللغات الخوارزمية والفارسية والعربية والإغريقية والسنسكريتية والعبرية التراثية والسريانية.

- سافر البيروني إلى جنوب آسيا وكتب دراسة عن الثقافة الهندية "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في

(١) أطلس الحضارة الاسلامية، ص٢٥.

(٢) see .E.j.Sharpe: Comparative Religion: A History (New york 1975) p220.

(٣) علم مقارنة الأديان، إبراهيم التركي، ص٤٩، مقالات في الدين المقارن، ٦٨-٧٣.

العقل أو مرذوله" بعد استكشاف الهندوسية الممارَسة في الهند. يُلقَّب البيروني بـ"مؤسس الهنديَّات" أو "مؤسس علم الهند". كما كان معروفًا بكتاباته الموضوعية عن عادات وعقائد العديد من الأمم. ولُقِّب بـ"الأستاذ"؛ نظرًا لوصفه غير المسبوق للهند في بداية القرن الحادي عشر في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله".

ويُعَدُّ هذا الكتاب من أضخم كتب المسلمين التي أُلِّفت في مجال تاريخ الأديان؛ إذ يقع في حوالي ستمائة صفحة، وقد قسَّمه البيروني إلى ثمانين بابًا حوت كمًّا هائلًا من الموضوعات المتشعِّبة والمتشابكة، والتي يصعب حصرها. فبعد مقدمة صغيرة ضمَّنها البيروني بعض ملامح منهجه في الكتاب، استطرد في الحديث عن كل ما يتعلق بالهند من الناحية الدينية، والاجتماعية، والثقافية، والعلمية، وغيرها، حتى أصبح هذا الكتاب موسوعة تاريخية لثقافة الهند، فقد تطرَّق فيه البيروني لمعتقدات الهنود في الله تعالى، وفي الموجودات العقلية والحسية، وفي الأرواح والجزاء والجنة والنار، ووصف آلهتهم، وطقوسهم، وفِرَقهم، وكتبهم، ومعارفهم، وبلادهم، وأنهارهم، وبحارهم، وممالكهم، ومنجِّميهم، وشرائعهم، وغير ذلك. فهو يُعَدُّ وثيقة تاريخية وحضارية فريدة ونادرة تكشف عن عالم الهند قبل دخول المسلمين إليها وبسط نفوذهم عليها(١).

وقد اكتسى الكتاب أهمية كبيرة، واشتهر عند علماء الأديان كواحد من أهم الكتب في هذا المجال، وحظي باهتمام الباحثين والدارسين، خاصَّةً الغربيين منهم، والذين أثنوا عليه، وأشادوا بقيمته العلمية.

"وفي عصرنا هذا نرى أعلام المستشرقين يصفونه بأنه كان بطليموس عصره، ويقرِّرون أنه فاق كل علماء زمانه بمعرفته الواسعة العميقة"(٢).

كما وصف «وول ديورانت» –مؤرخ الحضارة الشهير– البيروني بأنه «مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه»، وأنه قد سبق «فرنسيس بيكون»؛ إذ قضى بأنه يجب علينا إذا طلبنا العلم أن نصفِّي عقولنا من جميع الأسباب التي تُعمي الناس عن الحقائق، وأن نتحرَّر من العادات البالية القديمة، والنزعات المسبقة والرغبة في الاستعلاء(٣).

"ولا عجب كذلك أن نجد في القمر أماكن تحمل اسمه، وأن تسمِّي "روسيا" مدينة وجامعة باسمه، وتقيم له تمثالًا في جامعة موسكو، وتنظِّم في شأنه ٤٠ ندوة، ويُكرَّم من قِبل دول عديدة"(٤).

كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ": طُبع ضمن السلسلة الجديدة من

(١) منهج البيروني في دراسة الأديان، بن مبارك علي، مجلة ثقافتنا، العدد ١٤٣٧/١٦هـ.

(٢) تراث الإنسانية، المجلد الثالث، أحمد محمود الساداتي، ص١٢٩.

(٣) إسماعيل مظهر، سير ملهمة من الشرق والغرب، مكتبة النهضة – القاهرة، ١٩٦١م، ص٢٣.

(٤) مجلة الإحياء، المجلد: ١٩، العدد: ٢٢، سبتمبر ٢١١٩، أ. يوسف الشاطر، ص٢٤٥.

مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس، بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م، بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – آندهرا برديش – الهند، في ما يقارب الخمسمئة صفحة، ويحتوي على ثمانين بابًا.

أقوال العلماء في الكتاب:

يقول المستشرق الروسي "فاسيلي فالدمير" مؤكِّدًا اعتماد البيروني على المصادر الأصلية للهنود: "وألَّف كتابًا قَيِّمًا عن الهند، يدل على نظر واسع وحياد علمي تام، وفي كتابه عن الهند معلومات واسعة عن الأديان والعلوم التي فيها، وقد استقاها البيروني من منابعها الهندية المباشرة"(١).

ونجد المستشرق الألماني "سخاو" يصفه بقوله: "إن البيروني من أضخم العقول التي ظهرت في العالم، وإنه أعظم علماء عصره"، بل إن حياد البيروني بلغ درجة جعلت "إدوارد سخاو" يقول: "إنك تقرأ بعناية صفحات عديدة من الكتاب دون أن يتبادر إلى ذهنك أن الكاتب مسلم، وليس هندوسيًّا".

وقال فيه آدم متز: "وفي أوائل القرن الخامس الهجري- سواء في الغرب أو في الشرق- "ألَّف أبو الريحان البيروني كتابه المسمَّى "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وجعله كتاب حكاية لمذاهب الهند على وجهها، لا كتاب حِجَاج وجدال؛ ولذلك لم يناقض الخصوم، ولم يتحرَّج من حكاية كلامهم، وإنْ بَايَنَ الحقَّ؛ فكان هذا الكتاب كتاب بحث علمي نزيه".

يقول "ألانا"- صاحب الكتاب التذكاري عن البيروني-: "إن البيروني ألَّف كتابه عن الهندوسية، ولم يكن فيه منحازًا أو متعصِّبًا، واستشعر واجبه كمسلم في اقتباس نصوصهم كاملةً، ولم يكن كتابه كتابًا جدليًّا، بل هو تسجيل تأريخي للحقائق، قد وضع فيه أمام القارئ نظريات الهندوس كما هي".

يقول الباحث الأمريكي إيمبريك: "يتقدَّم البيروني نحو فهم الاختلافات الثقافية، ويعرض عقائد الهنود تاركًا الهندوسيين يتكلمون عنها بأنفسهم، وبتعبيرهم الخاص".

يقول بارتولد: "وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام، ولا يعترض ولا ينقد مطلقًا حينما يشرح العقائد الدينية. كما كان يحافظ- ما أمكن- على العبارات التي يستخدمها معتنقو كلِّ دين، وإذا قارن بين دينٍ ودينٍ، فإنما يقارن بينهما مقارنة علمية محضة"(٢).

منهج البيروني في دراسة الأديان:

اتَّبع البيروني في- وصفه لأديان الهند- منهجًا خالف به مَن سبقه من علماء الإسلام، ويمكن إجمال سمات هذا المنهج:

(١) مجلة الإحياء، صـ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق، صـ٢٤٨.

دراسة الجانب المنهجي لدى البيروني لا تحتاج إلى شيء آخر غير كتابه "تحقيق ما للهند..."، الذي يُعتبر بحقٍّ من الدراسات الباكرة في مقارنة الأديان.

فإذا جئنا إلى هذا الجانب المنهجي لنرى جهوده فيه نجد أنه أبدع فيه إبداعًا لم يُسبق إليه. ونستطيع أن نقول- متعجِّلين النتيجة- إنه استخدم المنهج الظاهراتي بالمعنى العلمي الدقيق وكأنه من رجالات هذا القرن العشرين، ووظَّف المنهج الأنثروبولوجي لخدمة منهجه التاريخي وكأنه من علماء مقارنة الأديان في العصر الحديث.

لقد وطَّن البيروني نفسه لكتابه "تحقيق ما للهند"- بعد أن قام بزيارات مكثَّفة- أن نذر ثلاثة عشر عامًا كاملًا لدراسة الأرجاء الجنوبية والغربية للهند، الهند وأديانها ومدارسها الفلسفية في لغتها الأصلية. هذا العمل الذي لا نظير له في سعة مجاله، وتنوُّع موضوعاته، ومنهج المقارنة الذي تبنَّاه، وفوق هذا كله في بصيرة مؤلِّفه المحايدة والعميقة". وإذا كان البيروني قد استخدم المنهج التاريخي والأنثروبولوجي بصورة علمية بطريقة تتناسب مع المفهوم العلمي الحديث ولأول مرة في التاريخ:

«لن أُقدِّم حُجج خصومنا من أجل دحضها؛ لأنني أعتقد أن هذا خاطئ. كتابي لا يزيد عن كونه سجلًّا تاريخيًّا لحقائق. سأضع بين يدي القارئ نظريات الهندوس كما هي بالضبط، وسأذكر في السياق بعض نظريات الإغريق موضِّحًا العلاقة الموجودة بينهما.

- اللغة:

يُعتبر الإلمام باللغات من أهم الإجراءات المنهجية الضامنة للموضوعية في الدراسات الدينية، والاطلاع على الكتب المقدَّسة ومصادر الأديان الأساسية لا يتأتَّى إلا باللغة التي كُتبت بها، كما في الكثير من الأحيان، خاصة إذا كانت هذه الكتب غير مترجمة إلى لغة الدارس أو اللغة الأكثر استعمالًا وتداولًا في البحوث الأكاديمية خاصة في وقتنا اليوم. وإذا رجعنا إلى المؤلفات الإسلامية في الأديان وجدنا أن بعض العلماء كانوا على دراية ببعض اللغات للأديان المدروسة، فأبو عيسى الورَّاق كان يتقن اللغة الفارسية في دراسته للديانة الزرادشتية، وأبو الريحان البيروني في دراسته عن أديان الهند كان يتقن اللغة السنسكريتية.

الموضوعية:

يعرِّف عبد الوهاب المسيري رحمه الله "الموضوعية" بأنها: "العلم الخالي من القيمية والأحكام الأخلاقية"، وفي موضع آخر يعرِّفها بقوله: "إدراك الأشياء على ما هي عليه، دون أن يشوِّهها نظرة ضيِّقة، أو أهواء أو مصالح، أو تحيُّزات، أو حبٌّ أو كره".

أما عبد الحليم بكار فيعرِّفها بقوله: "مجموعة من الخطوات والأساليب التي تمكِّننا من الوقوف على

الحقيقة، والتعامل معها على ما هي عليه، بعيدًا عن الذاتية والمؤثِّرات الخارجية"(١).

ومن المعلوم -كما يذكر عامر الحافي- أن مصطلح "الموضوعية" لم يكن مستعملًا في تراثنا الإسلامي، إلا أن المضمون المعرفي الذي ينطوي عليه المصطلح، يترادف مع مصطلحات أخرى استُعملت في التراث الإسلامي وهي الإنصاف والعدل والحياد والصراحة والتجرُّد عن الهوى"(٢).

وإذا كانت إشكالية الموضوعية مطروحة بشكل كبير في حقل الدراسات الإنسانية والاجتماعية، باعتبارها من الأمور صعبة التحقيق والتطبيق؛ وذلك لأن الباحث في هذه العلوم لا يستطيع التجرُّد من خلفياته الفكرية والعقدية والفلسفية.

وقد فاز البيروني بترحيب الباحثين الهندوس، وأصبح فصيحًا في اللغة السنسكريتية، وسمح ذلك له بترجمة رياضيات وعلوم وطب وفلك الهندوس وغيرها من المجالات في القرن الحادي عشر إلى العربية. انبهر البيروني بحجج العلماء الهندوس الذين يقيمون الدليل على كروية الأرض، باعتبارها الطريقة الوحيدة لتفسير اختلاف ساعات النهار بالمواسم وخطوط العرض وموقع الأرض النسبيّ للقمر والنجوم.

لم يكتفِ الكتاب بالتسجيل المضجر للمعركة؛ لأن البيروني وجد الثقافة الاجتماعية أكثر أهميَّةً. يشمل العمل بحثًا عن العديد من الموضوعات حول الثقافة الهندية، منها وصف العادات والتقاليد الهندية. سجَّل البيروني بالفعل بعض التواريخ السياسية والعسكرية المهمة، وسجَّل عددًا من المواقع التي حدثت فيها المعارك المهمة، بالرغم من محاولته البعد عن هذه الأحداث في دراسته.

البيان المحايد الذي قدَّمه البيروني عن الهندوسية كان غير مسبوق في وقته، فقد أشار إلى موضوعيته الكاملة في الكتابة، والبعد عن التحيُّز كما يجب أن يكون المؤرخ الحق.

منهج المؤلف في الكتاب:

لقد حرص المؤلف على سلامة منهجه العلمي، والعيان والمشاهدة هي أول ما حرص على اتِّباعه، فيقول: "صدقَ قولُ القائل: (ليس الخبر كالعيان)؛ لأن العيان هو إدراكُ عينِ الناظر عينَ المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله"(٣).

الحياد والموضوعية:

ابتعد البيروني عن النقد والجدل، واختفت مرجعيَّته الإسلامية في ثنايا الكتاب، فكان مجرد حاكٍ وناقلٍ لما شاهده في بلاد الهند، وكان ذلك مما أكده البيروني في مقدمة كتابه، حيث قال: "ففعلتُهُ غير باهتٍ على الخصم ولا متحرّج عن حكاية كلامه، وإنْ بَايَنَ الحقَّ واستفظع سماعه عند أهله فهو اعتقادُهُ

(١) الموضوعية في دراسة الأديان، الحافي عامر، مجلة اسلامية المعرفة، العدد: ٦٠، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٠، ص: ١٣٢.
(٢) إشكالية التحيز، عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ج٢، ص١٣٢.
(٣) المرجع السابق، ص١٣٣.

وهو أبصَرُ به. وليس الكتاب كتاب حِجاج وجدل حتى أشتغل فيه بإيراد حُجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنَّما هو كتاب حكاية فأُورد كلام أهل الهند على وجهه"، ويقول في موضع آخر: "وأنا في أكثر ما سأُورد من جهتهم حاكٍ غير منتقد".

كما التزم البيروني منهج الصدق في الإخبار عن عقائد الهنود؛ فوصف كتابه «تحقيق ما للهند» بأنه ليس لنصرة مذهبٍ على آخر، أو مِلَّةٍ على أخرى، بل هو كتاب يرصد الحقيقة فقط، فهو ليس كتاب حِجاج أو جدال استعمله للردِّ على خصوم الإسلام، ومناقضة آرائهم، إنما هو «كتاب حكاية فأُورد كلام الهند على وجهه، وأُضيف إليه ما لليونانيين مثله؛ للمقاربة- المقارنة- بينهم"[1].

الاعتماد على المعاينة والمشاهدة المباشرة:

يقابل منهج المعاينة ما يُعرف الآن -في المنهج العلمي الحديث- بالملاحظة الحسية والمشاهَدة الواقعية؛ أي: عدم الاكتفاء في معرفة الظاهرة بجمع المعلومات من الكتب المسطورة، بل لا بد من الرجوع إلى الواقع لدراستها واختبار مدى صدقها أو كذبها.

أي أن البيروني لم يقم بدراسةٍ نظرية لأديان الهند، بل قام بدراسةٍ تطبيقية ميدانية، يدل على ذلك قوله في مقدمة الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، إنَّما صدقَ قولُ القائل؛ لأن العيان هو إدراكُ عينِ الناظر عينَ المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله".

ولم يكتفِ البيروني بالمشاهدة فقط، بل كان في بعض الأحيان يسأل ويستفسر العلماء والمنجِّمين ورجال الدين، وفي ذلك يقول: كنتُ أقفُ من منجِّميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعُجمتي فيما بينهم وقصوري عمَّا هم فيه من مواضعاتهم".

وقد "دفع البيروني حرصه على سلامة منهجه العلمي إلى إتقان جملة من اللغات، ومنها: اليونانية، والسنسكريتية، فضلًا عن الفارسية، فلقد كان يلتزم الرجوع فيما يكتب التزامًا صارمًا، تراه واضحًا جليًّا في كل ما كتب بلا استثناء"[2]، إضافةً إلى حرصه على فهم طبائعهم وأفكارهم التي تشكَّلت مختلفةً كاختلاف لغتهم، حتى استطاع اكتساب ثقتهم، ومكانة تسمح له بدراستهم عن كثب.

ثم يصف صاحب الكتاب منهجه في الكتاب بقوله: "وليس الكتاب كتاب حِجاج وجدل حتى أشتغل فيه بإيراد حُجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنَّما هو كتاب حكاية فأُورد كلام أهل الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيّين من مثله لتعريف المقاربة بينهم، فإنَّ فلاسفتهم وإن تحرَّوا التحقيق فإنَّهم لم يخرجوا فيما اتَّصل بعوامِّهم عن رموز نِحْلتهم ومواضعات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم

(١) تحقيق ما للهند، ص٥.

(٢) تراث الإنسانية، ص ١٢٨.

كلام غيرهم إلَّا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتِّحاد، وكنتُ نقلتُ إلى العربيَّة كتابين، أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات، واسمه «سانك» والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويُعرف بـ«ياتنجل» وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم، وأرجو أن هذا ينوب عنهما وعن غيرهما في التقرير ويؤدِّي إلى الإحاطة بالمطلوب بمشيئة الله"(١).

البيروني والمنهج التاريخي والأنثروبولوجي والمقارنة

هو من أبرز الوجوه العلمية التي أنجبتهم الحضارة الإسلامية بل الحضارة الإنسانية، ويرى الدكتور سيد حسين نصر أن البريوني أعظم العلماء وأبرز الوجوه العلمية في الإسلام(٢)، ويرى المستشرق (سخاو) أن البيروني "أعظم عقلية عرفها التاريخ"، ومن قائمة البيروني نجد أن له ستة كتب بعضها مترجم وبعضها مؤلَّف تدخل في صميم مقارنة الأديان، هي:

ونجد أنه أبدع في الجانب المنهجي إبداعًا لم يُسبق إليه، واستخدم المنهج التاريخي بالمعنى العلمي الدقيق، ووظَّف المنهج الأنثروبولوجي لخدمة منهجه التاريخي، بل إننا نرى منهج المقارنة التي تهدف إلى إبراز أوجه التشابه لأجل التوصُّل إلى مزيد من الوضوح والفهم على أدقِّ ما يكون وكأنه من مدرسة عالم مقارنة الأديان الكبير (يوخيم واخ) الألماني.

وقدَّم البيروني الكثير فيما يتعلق بالمنهج أنه لم يكتب كتابه عن الهند وفلسفاتها وأديانها وعلومها إلا بعد أن بذل جهده في معرفة هذا البلد وأديانه وفلسفته وعلومه ووصل إلى ما يُحسد عليه.

وقد عاش البيروني في الهند وجال في أرجائها، وتعلَّم لغتها، وأتقنها، وحاور علماءها، واختلط مع عوامِّها، وقضى في كل ذلك ثلاثة عشر عامًا أو ثلاثين عامًا- على اختلاف الروايات- حتى أذهل علماء الهنود أنفسهم بسعة علمه، وعلوِّ مرتبته، وكمال فهمه، وترجم إلى العربية بعض كتبهم كما ترجم إلى لغة الهند بعض التراث اليوناني والإسلامي.

وإذا كان البيروني قد استخدم المنهج التاريخي والأنثروبولوجي بصورة علمية، وربما بطريقة تتناسب مع المفهوم العلمي الحديث، ولأول مرة في التاريخ، فإنه كذلك استخدم منهج المقارنة بمفهومه العلمي الدقيق خير استخدام، مع فارق بينه وبين العامري فيه، فالعامري يستخدم المقارنة ليتوصَّل بها إلى إحقاق الحق، وإظهار بطلان الباطل، أما البيروني فيكتفي بالمقارنة كوسيلة للتوصُّل إلى المعرفة الدقيقة، وإدراكٍ أعمق، وفهمٍ أوضح للموضوع قيد البحث.

---

(١) تراث الإنسانية، ص٥-٦.

(٢) انظر ص ٥٠ من:

Science and civilization in islam by sayyed Hussain Nasr (suhail Acadamy-lahore- second ed.1987).

ولعل الدوائر العلمية نستطيع أن تقدِّر هذه المنهجية الرائعة والرائدة لدى البيروني؛ إذا وضعت في اعتبارها أن البيروني كتب ما كتب في وقت كان المسلمون فيه سادة العالم، وعلى الرغم من مضيِّ ما يقرب من ألف عام فإن منهج البيروني لا يزال غضًّا طريًّا يعطي الكثير لأبناء اليوم والغد، فيبقى البيروني مفخرةً من مفاخر الإسلام ومأثرةً من مآثره في الجانب المنهجي لمقارنة الأديان.

مصادر البيروني في وصفه لأديان الهند:

إلى جانب دراسته الميدانية، اعتمد البيروني كذلك في وصفه لأديان الهند على مصادرها المكتوبة، وقد صرَّح بذلك في أكثر من موضع، فقال مثلًا في سياق حديثه عن كتابه: "ولقد أعيتني المداخلُ فيه، مع حرصي الذي تفرَّدتُ به في أيَّامي، وبذلي الممكن غير شحيحٍ عليه في جمع كتبهم من المظانِّ، واستحضار من يهتدي لها من المكامن"(١).

والْمُطالِع لكتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" يجد إشارات متكرِّرة من البيروني إلى كتب الهند، سواء كانت إشارات عامة، أو إشارات خاصة إلى كتب بأسمائها، يقول: "ولنورد في ذلك شيئًا من كتبهم لئلَّا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط"، ويقول: "وحقيقٌ علينا أن نُورد من كتبهم شيئًا من صريح كلامهم في هذا الباب وما يشبهه من كلام غيرهم فيه"(٢).

ولعل ما يؤكد مطالعة البيروني لهذه المصادر واعتماده المباشر عليها، ترجمته لكتابين منها، وهو ما صرَّح به في مقدمة كتابه حيث قال:" وكنتُ نقلتُ إلى العربيَّة كتابين، أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات، واسمه "سانك" والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويُعرف بـ"ياتنجل" وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم، وأرجو أن هذا ينوب عنهما وعن غيرهما في التقرير ويؤدِّي إلى الإحاطة بالمطلوب بمشيئة الله"(٣).

الخاتمة:

لقد اجتمعتْ في البيروني كلُّ صفات دارس الأديان، فإضافةً إلى حياده وموضوعيَّته، وأمانته في نقل الأخبار، واعتماده على الدراسات الميدانية، ورجوعه إلى المصادر الأصلية، فقد تميَّز بصفةٍ غابت عن جُلِّ علماء الإسلام المتقدمين الذين تطرَّقوا لموضوع الأديان، ألَا وهي إتقانه للغة الأمَّة التي تناولها بالدرس والوصف، وهي" اللغة السنسكريتية".

(١) تحقيق ما للهند، ص٢١

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٦.

إن دراسة الأديان تتطلَّب الإلمام بأكثر من لغة، ولا سِيَّما لغة المِلَّة موضوع الدراسة وهذا المنهج توخَّاه البيروني بكلِّ صرامة، فأقبل على اللغة السنسكريتية – لغة بلاد الهند– قبل زيارتها، كما أتقن استعمال لغاتٍ أخرى قراءةً وكتابةً، مثل: الخوارزمية والفارسية والسريانية واليونانية. كما كان البيروني رائدًا في استخدام ما سُمِّيَ حديثًا بالمنهج الظاهراتي.

– ظهور علم مقارنة الأديان باعتباره فرعًا علميًّا مستقلًّا له مناهجه وأصوله، كان في الغرب أواسط القرن التاسع عشر، على يد ماكس مولر.

– علم مقارنة الأديان له تاريخ طويل وجذور تمتدُّ إلى أقدم العصور، ويمكن أن نعتبره علمًا تتقاسمه جميع الحضارات والأمم التي مرَّت في تاريخ الإنسانية.

– عرف الفكر الإسلامي دراسة الأديان منذ وقت مبكر، وأسهمتْ مجموعة من العوامل في دفع المسلمين نحو هذا الحقل العلمي الجديد.

– أسهم علماء الإسلام إسهامات قيِّمة في علم مقارنة الأديان، تميَّزوا بها عمَّن سبقهم، وسبقوا بها من جاء بعدهم في هذا المجال.

– تنوَّعت مناهج دراسة الأديان عند علماء الإسلام، بين التأريخ والوصف والنقد والمقارنة والردّ والجدل.

– وصف البيروني أديان الهند ومذاهبها في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وجمع صفات أهَّلته لذلك، أبرزها تمكُّنه من اللغة السنسكريتية، وقيامه بزيارة ميدانية للهند، واطلاعه على مصادرها الأصلية، وبلغ من الحياد العلمي درجةً جعلت البعض يشكِّك في إسلامه.

المراجع:

إشكالية التحيز، عبد الوهاب الميسري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥.

أطلس الحضارة الاسلامية، إسماعيل راجي الفاروقي ولمياء الفاروقي، ط١، الرياض مكتبة العبيكان، ط١/١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.

تراث الإنسانية، المجلد الثالث، أحمد محمود الساداتي، القاهرة.

سير ملهمة من الشرق والغرب، إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة –القاهرة، ١٩٦١م.

علم الملل ومناهج العلماء فيه، أحمد بن عبد الله جود، دار الفضيلة، الرياض، ٢٠٠٥م.

علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، إبراهيم التركي، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.

في علم الدين المقارن، مقالات في المنهج، ميرا دين محمد، ميراث النبوة للنشر والتوزيع.

مجلة إسلامية المعرفة، العدد: ٦٠، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٠.

مجلة الإحياء، المجلد: ١٩، العدد: ٢٢، سبتمبر ٢٠١٩، أ. يوسف الشاطر.

مدخل فلسفي محمد شبل الكومي، المذاهب النقدية تقديم: محمد عناني، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ٢٠٠٠م.

منهج البيروني في دراسة الأديان، بن مبارك علي، مجلة ثقافتنا، العدد ١٤٣٧/١٦هـ.

الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي لحميل الحاج، مكتبة لبنان ناشرون،٢٠٠٠م.

الموضوعية في المصادر الإسلامية المؤَسِّسَة لعلم مقارنة الأديان، يوسف العائب، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المجلد ٣٥، العدد ٢.

الموضوعية في دراسة الأديان، عامر عدنان الحافي، إسلامية المعرفة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مج١٥، ع٦٠.

النموذج المعرفي لنقد الأديان عند الفاروقي، بلال التليدي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة، السنة التاسعة عشرة، العدد ٧٤، سنة ٢٠١٣.

Leeuwe, «Religion in Essence and Manifwstation» in J.Waardenburg: op cit: p 415-417 .

see .E.j. Sharpe: Comparative Religion: A History (New york 1975) p220.

Science and civilization in islam by sayyed Hussain Nasr (suhail Acadamy-lahore- second ed.1987).